

علم النفس

وصلته باللغة والأدب والاجتماع

— ٢ —

المؤستاذ محمد خلف الله

المدرس بكلية الآداب

طرق الدراسة النفسانية

أمام الباحث العلمي وجهتان يمكن أن تتجه إليهما جهوده : أولاهما النظر في قضايا العلم الذي توفر على درسه ، والبحث في معضلاته ونتائجه ، والثانية النظر في طرق هذا العلم وخطوطه . ولكل من هاتين الوجهتين اتصال وثيق بالأخرى ، فإن المعضلة لا تتحدد في شكل علمي إلا إذا وجدت طريقة لعلاجها ، ويتوقف سير النتائج على مقدار الاتقان في خطط الدراسة ، وكلما تقدمت الخطط والنتائج تفرعت منها معضلات جديدة .

ولاختلاف خطط الدراسة تختلف العلوم في سيرها ، بل تختلف شعب العلم الواحد في أهميتها ، فالعلم لا ينمو كشجرة واحدة وإنما يتألف من أجزاء لكل منها حياة خاصة وزمان نضج خاص . وعلم النفس من أكثر العلوم خضوعاً لهذه الظاهرة ، إلا أنه يمكنك أن تقول على وجه عام إن العلم في تقدمه يسير من الوصف البسيط إلى تحديد العلاقات وتنظيمها والوصول إلى قواعد عامة ووضعها في حدود كمية . ولا بد في دراسة أي علم من مادة يبنى عليها الدرس ، وطريقة تعالج بها هذه المادة ، وخطة أو خطط تنفذ بها تلك الطريقة . فإما المادة الغفل في علم النفس فهي تصرف الأفراد وحياتهم العقلية ، وتلك يستقيها الباحث من مصادر عدة كالسجلات المحتوية على تواريخهم ،

والمنتجات التي يخلقونها من رسوم وخطب ومقالات وقصائد ، وكالتصرف الذي تدونه الملاحظة أو التجربة ، والأخبار التي يتطوع بها الشخص نتيجة فحصه نفسه ، والذكريات التي يستعيدنها عن سابق حياته ، وكالمقاييس التي تحاول ذرع أثر الوراثة والبيئة بأنواعها في حياة الأفراد .

وأما طرق الدراسة النفسانية وخطاها وهي موضوعنا اليوم . فسنبدأ منها بطريقة الفحص النفسى (أو التأمل الباطنى) التي كانت عماد هذه الدراسات حتى أواخر القرن الماضى ، والتي لا تزال موضع ثقة كثير من العلماء الحاضرين . إنه ليس لأحد من الناس اتصال مباشر إلا بعقله الخاص ، فكل منا يحس لذة أو ألماً ، ويفكر وينزع إلى العمل ، ويتذكر ويتقرب ، ويتردد ويختار ، وإذا سلط الواحد منا تفكيره على هذه التجارب الخاصة فى نفسه ، استطاع أن يكون فكرة عن مظاهر عقله وعمما يحيش بنفسه من خطرات وشئون ، واستطاع من طريق المقارنة والقياس أن يعلم أن الآخرين تجارب مثل تجاربه ، وأن لهم عقولا مشابهة لعقله . وإذا لاحظنا ما يقترن بأحوالنا النفسية من تصرف جسمى خارجى ، كالحركات التي تقوم بها الأطراف والوجه والحلق والصدر ، وراقبنا مثل هذه المظاهر فى الآخرين ، وسمعناهم يتحدثون عن التجارب التي تراقفها ، أمكننا أن نصل إلى عدد من القواعد العامة نقرر فيها مقدار التلازم أو الارتباط بين أنواع من التجارب وأنواع من التصرف والحركة الجسمية وأمكننا أن نحكم من غير ما تردد — مما نرى من التصرف — أن هذا الشخص محزون أو مغتبط أو خائف أو متردد أو حائق أو شفيق .

هذه الأنواع من الملاحظة ، ملاحظة الشخص تجاربه الخاصة ، وملاحظته الظروف أو المناسبات التي تحيط بها ، والتعابير الجسمية التي تقترن بها ، كل أولئك يحذفه كثير من الناس ، ويضمنونه أساليب كلامهم ، ويبنون عليه قضايا أو نظريات من شأن علم النفس أن يبحثها فى طريقة علمية ويعرضها على محك النقد والاختبار .

وهذه الملاحظة من جانب الانسان لشئون نفسه والتأمل فيها ، والتعبير

عنها ، كل أولئك إذا جرى على نسق مرتب ونظام مرسوم ، كَوْن طريقة من أعظم طرق الدراسات النفسانية وأجدرها بالقبول والاعتماد . ولقد اهتمدى العلماء قديما إلى هذه الطريقة ، واعتبرها كثير منهم السبيل الوحيدة المجدية التي يمكن بها الحصول على المعارف الخاصة بالعقل . وقد اهتم العلماء فى الخمسين سنة الأخيرة بتنظيم هذه الطريقة وصبغها بالصبغة التجريدية ، وذلك بالابتعاد عن الفرد حصول التجارب ثم يحاول ملاحظتها ووصفها بل يعتمد إلى خلق الظروف المصطنعة التي تجر إلى بعض هذه التجارب ثم يراقب سيرها بكل دقة ، ويهتم بوصف كل صغيرة وكبيرة من نواحيها ، وأصبح يستعان الآن على تنظيم هذه الطريقة بالمعمل والأجهزة الدقيقة ومعونة الخبراء من النفسانيين .

والله لا يغيب عنك أن للفحص النفسى نواحى نقص تحد من قيمته والاعتماد عليه ، فإن محاولة هذا الفحص قد تغير من طبيعة التجارب التي نريد دراستها وتفوت علينا الغرض المراد منها ، وتوزع الذات بين جزء ملاحظ وآخر ملاحظ ، ألا ترى أن الشخص المغضب الذي يكاد يتميز من الغيظ والحق ، لو انصرف إلى التأمل الباطنى والتفكير فى مراحل غضبه وثوران نفسه لحقت فورة ذلك الغضب ولتغيرت التجربة الملائمة له تغيراً كبيراً ! ثم ألا ترى أن محاولة المرم النظر فى بعض تجاربه المؤثرة ووصفها قد يمنع منه انصرافه إلى مشاهدة آثارها الظاهرة ! وهبنا أردنا التغلب على بعض هذه الصعوبات فانظرنا حتى الفراغ من التجربة وزوال تأثيرها ثم حاولنا تذكر ما حصل خطوة بعد أخرى ، ألا ترى أن ذلك يعرضنا لخطأ نسيان بعض الخطوات ، أو خلط الترتيب بين بعضها والآخر ! على أن هناك صعوبة أخرى لا تقل عن سابقتها شأنها ذلك أن التعبير اللغوى الذى يحاول فيه كل منا أن يصف تجاربه الآخر هو فى العادة ناقص وغير دقيق : فاللغة — على اتساع أساليبها وغنى ثروتها ومحاولة الأدباء وعلماء النفس أن يجعلوها أداة كافية فى التعبير — لا تزال يعوزها الضبط والدقة فى وصف المعانى النفسية والظواهر العقلية ، وإذا كانت اللغة قد أثبتت غناها وكفايتها فى وصف الأشياء والحوادث المادية — لأن هذه الأشياء والحوادث

في متناول الجميع ، ويستطيع كل أن يتعرفها ويعبر عنها في قالب يرتضيه الآخرون ويوافقون عليه — فهي لا تزال بعد قاصرة أمام المعاني النفسية . والذنب في ذلك ليس ذنب اللغة ، وإنما هو خفاء هذه المعاني وكون معرفة المرء بهذه التجارب ليس دائماً مباشرة .

أما الفحص النفسى التجريبي فإمامه وراء هذه الصعوبات عقبة أخرى ، ذلك أن من بعض التجارب الحيوية المهمة كالحزن والفرح والنزاع النفسى الأخلاقى ما لا يستطيع إحداؤه بوسائل صناعية إلا في درجة محدودة ، لا تكفى في تحديد طبيعته تحديداً علمياً فليس التكحل في العينين كالكمحل ، وليست النأمة الشكلى كالمستأجرة .

هذه النواحي من النقص في الفحص النفسى أغرت بنقده جماعة السلوكيين الحديثين — وهم الذين يحتمون أن تكون الطريقة العلمية موضوعية ، لا يشوب روتقها الرأى الشخصى ولا التأويل الذاتى ، وأن تكون بحيث يتسنى للباحثين الاتفاق على خططها وتنتائجها — فأخرجوا الفحص النفسى من حظيرة دراساتهم وقالوا إن علم النفس فى معناه الصحيح ليس إلا دراسة التصرف والسلوك ، وإن من بين من يتناولهم هذا العلم الأطفال والشواذ ومرضى العقول والحيوان ، وأنى لطائفة من هؤلاء أن تقوم بفحص نفسى يعتمد عليه فى الدراسات العلمية الصحيحة !

ومهما يوجه إلى هذه الطريقة من نقد فقد أدت ولا تزال تؤدي أكبر الخدمات للدراسات النفسانية ، وقد ظهر أثرها جلياً فى تلك المرحلة الوصفية التبريدية من تاريخ علم النفس ، وهى كما تعلم مرحلة أساسية فى ترقى أى علم من العلوم ، والجمهرة على أن طبيعة التجارب النفسانية والعقلية ، وكون الأحوال الداخلية لكل شخص سرّاً خاصاً به لا ينكشف منه لغيره إلا أقله تجعل من الضرورى بقاء هذه الطريقة ركناً من أركان الدراسات النفسانية .

هذا وكل من المصلح والمربى والاديب يستطيع أن ينتفع بهذه الطريقة انتفاعاً علمياً ويجعلها بعض أسلحته فى الوصول إلى بعض نتائج نظرية وعملية

ذات شأن فانك تستطيع مثلاً — وقد قلت أنا بشيء من هذا في بحث صغير — أن تطلب إلى مجموعة من الناس أن يستذكروا ما أمر بهم من صراع أخلاقي ويفحصوا أنفسهم ليتبينوا العوامل التي تتنازعهم أثناء ذلك الصراع من رغبة جامحة أو شهوة عاصفة ، ومن وازع ديني أو اجتماعي ، ومن حرص على شرف أو فضيلة أو مصلحة عامة أو نفع شخص ، حتى إذا وافرك بنتائج فحصهم أعلمت فيه يد التحليل والإحصاء ، وربما خرجت منه بفكرة إصلاحية ، أو نظرية علمية موفقة . وإنك لتستطيع أن تطلب إلى عدد من الشعراء مثلاً أن يراقبوا أنفسهم ساعة تحفزهم دواعي الشعر ويهبط عليهم وحيه ، ثم يصفوا لك ما يتقلبون فيه من شعور وإحساس ، كيف يبدون ، وكيف تنزل عليهم المعاني ، وهل تجيش الخواطر بأنفسهم غامضة ثم يبحثون لها عن ثياب من الألفاظ والقوافي أم تبدو لهم كاملة في حليها وزينتها ، آخذة ألفاظها برقاب معانيها ، وأبياتها بحجز قوافيها ، وأين يفضل كل منهم أن يقرض الشعر : أنى حديقة ، أم مجلس أنس ، أم ساعة خلوة ، أم ساحة معبد ؛ وفي الصباح الباكر ، أم في المساء العصامت ، وتحت ظلال النخيل أم على شاطئ النيل ، فإذا اجتمع لديك عدد صالح من أمثال هذه الملاحظات الباطنية أمكنك أن تفهم طبيعة التجارب الشعرية ، وما يكون فيها بين الأفراد من فوارق أو من صفات مشتركة ، واستطعت أن تدلى فيها برأى تجريبي على يتناوله سواك بالتطبيق والنقد .

وقريب من هذا أن تراقب أنت نفسك أثناء قراءة الشعر أو سماعه لترى طريقة تأثيره فيك ، وما تبعثه الآيات في ذهنك من معان وأفكار وعواطف وانفعالات وصور وأخيلة ، ولتبين هل انصرفت أكثر إلى جمال الجرس الموسيقي ؛ أم إلى دقة المعنى أم إليهما معاً ، وهل كنت ترى نفسك في القطعة عند سماعها ، أم هاجت فيك شوقاً دفيناً ، أم ذكرتك أيام لهُ وشباب ، وهذه تجربة يمكن أن تجرى على عدد كبير من الناس ويمكن أن تكون نتائجها عوناً لمدرس الأدب أو باحثه على تبين عناصر التأثير في الأدب من جهة ، وعلى نواحي التفكير والأهواء التي تثيرها أنواع خاصة من الأدب في نفوس طلابه

من جهة أخرى ، ثم على كشف المراحل المتعاقبة من الشعور الذى يمر به قارى .
الآداب أو سامعه من جهة ثالثة .

وبعد فهل لك فى شئ من التطبيق لبعض هذه النواحي ؟ اقرأ هذه الآيات
الآتية (لابن خفاجة الأندلسى) فى تمهل وأناة وبصوت تسمعه ، ثم راقب
ما يجيش بنفسك من الصور والمعانى والذكريات عند قراءتها ثم دون ملاحظتك
بعد الانتهاء ، واذكر ما قد يعترضك من صعوبات فى الفحص النفسى ، ثم
قارن ملاحظتك بيمض ما ساء ورده عليك من ملاحظات فريق من طلبة السنة
الأولى بالجامعة المصرية ، « فريق من طلاب إجازة التدريس فى كلية اللغة العربية
بالجامعة الأزهرية : وهاك الآيات :

وأرعن طراح الذؤابة باذخ	يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة	ويزحم ليلا شبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه	طوال الليالى مفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمام	لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصختُ إليه وهو أخرس صامت	فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال : إلى كم كنت ملجأ قائل	وموطن أوأى تبطل نائب
وكم مر بي من مدج ومؤب	وقال بظلى من مطى وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطن	وزاحم من خضر البحار غوارب
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى	وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيبكى غير رجفة أضلع	ولأنوح ورقى غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعى وإنما	نزفت دموعى فى فراق الصواحب

ثم هاك بعض الملاحظات - وأترك لك أن تميز أنت الجامعى منها من الأزهرى
(الطالب ١) و بما مر بخلدى تصوير الدنيا فى سرعة زوالها بابتساف الأشياء
حيث نزع عن الإقامة بها كل سفر ضربوا أكباد الأبل قطعا
لأجوازها ومفاوزها . ثم خالجتنى فكرة خلو الجبل وكيف أنه
بقى مقفرا وستئول جميع الأماكن إلى ما آل إليه ، ثم اعترانى

وجيب في الفؤاد لم أتحقق مأناه ولكني أظنه جاء من رهبة الموت وجلال سطرته . ثم أخذتني نشوة من الطرب حينما أحسن الشاعر التعليل بجمعه أصوات اللابل نوحاً على فراق الأحبة ، واهتزاز الأيك رجفة وأسى في حنايا الضلوع .

(الطالب ٢) « أثار حديث ابن خفاجة في نفسي ذكريات الألم لفراق الصببة والاخوان ، كما أنه رسم في ذاكرتي صورة الرجل الوقور تمر به أحداث الأيام فلا ينزعزع والظريف في هذا أنني في بعض أياته رأيته واقفاً أمام رجل من الذين يمشون في الأسواق ومن ينتسبون إلى بعض مشايخ الطرق يرتدي قلنسوة سوداء لفت عليها عمامة حمراء . »

(الطالب ٦) « شعرت حينما سمعت وصف الشاعر الجبل بحالة نفسية محزنة ... ثم أثار الوصف في نفسي ذكريات الطبيعة الجميلة ... وقد كان ذهني موزعاً بين فهم اللفاظ ومراقبة الحالة النفسية . أما تسجيل ما قام بذهني مع الحالة النفسية التي كانت عندي فغير محدود تماماً ، (الطالب ١٥) « اعترتني مسحة من الحزن وأعوزني أن أعبر عن حقيقة ما خالج نفسي ، وشعرت كأن هذا الجبل الصامت إنسان فخور بنفسه يأوي إليه الضعيف والمسكين . وقد ذكرني بأهم أخني عليها الدهر بكل كفه . »

(الطالب ١٦) « خطر بنفسى اختلاف مشارب الناس ، والرهبة والرهبان ، وذكرت البيتين رب ركب قد أناخوا حولنا ثم ذكرت قول المعري :

نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما نرى :

نهار يمر ، وليل يكر ، ونجم يغور ، ونجم يرى

وقد كنت محسباً جمال الأسلوب والمعنى ... ولا أدري ماذا كان يحول بنفسى

لو لم أكلّف مراقبتها . »

(الطالب ١٧) ، تخيلت إني في صحراء واسعة الأرجاء يحثم في جهة منها جبل

ضخم يطاول السحب . أعقب هذا الخيال سرور بدقة الوصف وحسن التعبير ... وقد شعرت بأن ما نسبته أكثر مما كتبه .

(الطالب ٢٠) ، تذكرت أول ما تذكرت أياماً من صباي ، ولكني لم أعرف

شيئاً عن تحديدها ، وقد ذكرني كلامه عن الريح بمطالعاني عن الريح في جزيرة العرب وما كان من شأنها مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته ... ، .

(الطالب ٢٢) ، لقد سمعت هذه الآيات بتلف لمعرفة ما يجيش بخاطري

وما يحيط بشعوري من الذكريات ، فاذا أنا أشعر بالوحشة إلى هذه البلاد وآسى على ما أصاب أهلها من نوائب الدهر . وتصورت الجبل ينمى أهل ذلك العصر الذهبي العظيم . ولقد ذكرت مواقف انقبض صدرى فيها وآلمني منظرها فقد رأيت أحد أعزائي وقد نكبه الدهر في عزز لديه ينتحب ويبكي بكاء مرأ فخر في نفسى ما رأيت ... ،

(الطالب ٢٣) ، الحقيقة أن إعجابى بجودة الالتقاء شغلنى عن كثير من نقط القطعة

فلم يطرأ على ذهنى إلا تمنى أن أكون شاعراً عظيماً ... ولقد تذكرت الفرق بين حالة أسبانيا في الماضي وما تعانيه الآن من أهوال الحروب ... ولقد وجدت صعوبة كبيرة في الكتابة ، كيف أبدأ وأى شيء أكتب ، أعن اختلاف الناس بين عاشق وحزين ! ... ،

(الطالب ٣٠) ، أصبحت إلى الالتقاء مستجمعاً أفكارى فما بدأ البيت الأول حتى

حسبت أن الشاعر قد انتهى كل لفظ من الناظر سم جمعها في عقد ساحر مما دعانى إلى الانتباه فانتهت فاحسست أن فى صدرى شيئاً يتراعى كلما سمعت ابن خفاجة وهو يتخيل هذه المحادثة الخالدة بينه وبين الجبل الشاخر ... ، ثم أثرت أخيراً الشكاية فى

صدرى فاحسست رعدة من الحزن تسرى في جوانبي ... وما انتهى
الالقاء حتى شعرت أنى كنت في دنيا من الروعة والحسن والجمال
العبرى النادر .

(الطالب ٣١) « تصور لى في مخيلتي منظر رجل معمم جالس في ظلمات الليل
يحدث رجلاً مسافراً على ناقه تبدو عليه علامات الذعر والخوف
ثم تذهب عنه علامات الخوف ويتبدل وجهه الشاحب إلى وجه
تظهر عليه علامات الدهشة والعجب ... » .

(الطالب ٣٢) « هذه القطعة تذكري قيساً حين هام بليلي وذهب حيث لا يعرف
سبيله وقد سدت في وجهه الطرقات حين فوجيء بعدم رضا
ليلي عنه ... » .

(الطالب ٤٠) « ابتداء ابن خفاجة فأعطانا تصوراته للطبيعة وما يحيط بها من
جبال شامخة وليل طويل . وقد تصورت، الجبل كملاق شامق
وقد النف برداء أسود هو الليل ، وتذكرت الوحشة التي يلقاها
المسافر وحيداً لا أنيس له إلا صوت الطبيعة ومناظرها . وما
القطعة التي سمعتها إلا شيء تألف من كلمات وألفاظ أخذت
موسيقاها تتراقص فيما بينها فهاجتني بعذوبتها وانسجامها . ولا
أدرى إلى أي مدى قذفت في هذه الألفاظ فقد انتقلت إثرها عما
أنا فيه إلى طبيعة كلها سكون وحشة . » .

(الطالب ٥٠) « تصور الطبيعة فوصفها وصفاً جميلاً من ليل بهيم وسماء صافية
ثم وصف الصحراء وما يكتنفها من مظاهر خلابة جميلة ، من
هبوب الرياح والهواء المنعش ، ووصف حاله وهو وحيد تمر به
قوافل المسافرين ثم تحسر على فراق الأحبة . » .

هذه بعض نماذج من نتائج الفحص النفسي ولعلك بعد قراءتها تقر معي أن
لهذه الطريقة العلمية جانبها الممتع اللطيف .

محمد خلف الله